5 – من تراث الصحيفة نشر في عام 1956

الخبرة المدرسية

وآثارها في شخصية الإنسان وسلوكه *

دكتور/ الدمرداش عبد المجيد سرحان

لقد أصبحت المدرسة ضرورة اجتماعية في حياتنا الراهنة، فهي تعمل على تزويد التلاميذ بما يحتاجون إليه في حياتهم من خبرة متعددة الجوانب، وصل إليها الإنسان واستخدمها على مر الأجيال في مواجهة مشكلات حياته.

ومما يؤخذ على المدارس التقليدية أنها جعلت اهتمامها مقصورا على التحفيظ والتسميع، فإذا حفظ التلميذ ما يراد به حفظه من الحقائق الغزيرة، واكتسب ما يراد به اكتسابه من المهارات، فقد حسبت المدرسة أنها حققت رسالتها.

ولكن بقى أن نتساءل: ألا تترك الحياة المدرسية لدى التلاميذ من الآثار غير تلك المعارف التي تعيها ذاكراتهم فترة من الزمن قد تقصر أو تطول قبل أن يدركها النسيان؟ وإذا كان هنالك آثار أخرى فما هي وما أهميتها وإلى أي مدى حققت المدرسة رسالتها إزاء هذه الآثار؟

<u>تحليل مواقف الخبرة:</u>

وللإجابة عن هذه الأسئلة ينبغي أن نتأمل ما يحدث للإنسان في كل موقف من مواقف الخبرة العديدة المتصلة التي يمر بها في حياته.

إن الإنسان يتفاعل مع بيئته تفاعلا مستمراً يدفعه إلى ذلك حاجاته المتعددة إلى هذه البيئة التي تتوقف عليها حياته. ولا نقصد بالبيئة هنا مظهرها المادي فحسب. فللبيئة الفكرية والاجتماعية والعاطفية خطورتها وأهميتها في حياة الإنسان

(*) دكتور/ الدمرداش عبد المجيد سرحان (1956)، الخبرة المدرسية وآثارها في شخصية الإنسان وسلوكه، صحيفة التربية، السنة الثامنة، العدد الرابع، شهر مايو.

كذلك. ولو أننا حللنا موقفا من مواقف الخبرة العديدة التي نمر بها في حياتنا اليومية لرأينا أنه يتألف من جانبين: إدراكي، وانفعالي.

أما الجانب الإدراكي فيتمثل فيما يدركه العقل من حقائق أو معاني نتيجة لما تتلقاه الحواس المختلفة إحساسات تثيرها البيئة، وما يدركه من علاقات وما يخلص اليه من معان ونتائج في كل موقف. ويقوم العقل بترجمة هذه الإحساسات وإدراك معانيها على ضوء ما لدى الإنسان من خبرة؛ وبذلك تصبح الخبرة السابقة أساسا لكسب الخبرة الحاضرة، كما تصبح هذه أساساً لخبرة المستقبل.

ومن واجب المدرسة أن تعنى بالتعرف على ما لدى التلاميذ من خبرة سابقة حول الموضوعات التي يدرسونها حتى لا يصبح ما يدرسونه ألفاظاً خاوية لا تستند إلى أساس وحتى يتم بناء الجديد من الخبرات على أساس السابق منها؛ وقد يتعجب الإنسان إذ يكتشف أن كثيراً من الألفاظ والتعاريف والقوانين والحقائق التي يرددها التلاميذ قد تكون غير واضحة المعنى لديهم، أو أن لديهم عنها معان مشوهة خاطئة.

ولقد سئل أحد الأطفال مرة. أين تضع الدجاجة بيضها، فقال "في المتوسط" وعندما نوقش في هذه الإجابة تبين أنه في كتابه أن الدجاجة تضع خمس بيضات أسبوعياً "في المتوسط". مما يوضح نوع الأخطاء التي يقع الأطفال فيها نتيجة لعدم وضوح المعنى لديهم.

ومن واجب المدرسة أن تهيء للتلاميذ الفرص الوفيرة لكسب الخبرة المباشرة بالإكثار من الرحلات والدراسات العملية وربط الدراسة بالبيئة والحياة.

أما الجانب الانفعالي من الخبرة فإنه يتمثل فيما يصاحب الجانب الإدراكي دائما ويترتب عليه من انفعال، قد يكون شديداً واضحًا كالخوف والغضب أو ضعيفا غير واضح حتى لا يكاد الانسان يميزه.

<u>الخبرة والميول:</u>

وكما يختلف الانفعال في شدته فإنه يختلف كذلك في نوعه. فقد يكون سارآ تطيب به النفس ويدفع صاحبه إلى تكرار الموقف، طمعا في مزيد

من الاستمتاع به ويؤدى التكرار إلى تبلور شعور الإنسان وإغرائه بمزيد من التكرار وبذلك نستطيع أن نفسر طريقة تكوين الميول الايجابية التي تدفع صاحبها نحو عمل من الأعمال، وما قد يؤدى إليه ذلك إلى تكوين عادة تتصل بهذا العمل، وقد يكون الانفعال غير سار فيمهد لتكوين ميل سلبي نحو عمل من الأعمال.

وينبغي ألا يكون حكمنا على نوع الانفعال مقصوراً على ذلك الأثر المباشر الذي يحدثه أو يترتب عليه.

فالإنسان قد يقع في كثير من المواقف تحت تأثير أكثر من دافع أو حاجة وقد تتضارب الحاجات والدوافع فيما توجه إليه، فالشخص الجائع الذي لا يجد ما يقتات به قد يكون في موقف من المواقف بحيث يتنازعه عاملان: حاجته إلى الطعام، وحاجته إلى رضا المجتمع عنه واحترامه لنفسه أو المحافظة على دينه ومثله العليا وقد يتغلب العامل الثاني فيؤثر الشخص الجوع على السرقة.

وكثيراً ما يضحى الإنسان بلذة عاجلة في سبيل تحقيق غاية أبعد.

و تعنى التربية بتكوين القيم والمثل العليا وبتنمية الحساسية الاجتماعية حتى لا يكون تصرف الإنسان في مواقف حياته قائمة على مجرد الاستجابة لشهواته فيصبح ذلك عبداً لها. ويقاس نجاح التربية بمدى ما يترتب عليها في حياة الإنسان من إيثار على النفس، وتضحية في سبيل المجتمع، وتحرر من استعباد الشهوات. ولا يتحقق ذلك إلا إذا قد توفرت البيئة الاجتماعية المناسبة التي يتدرب التلاميذ فيها على ممارسة أساليب الحياة الاجتماعية وتقدير نتائج أعمالهم على ضوء أهداف الجماعة.

وكثيراً ما يرجع إخفاق المدارس في تحقيق أهداف التربية الاجتماعية إلى اقتصارها على تحفيظ حقائق المواد الاجتماعية وعدم العناية بخلق البيئة الاجتماعية المناسبة التي توجه ميول التلاميذ وعواطفهم وسلوكهم وتعطيهم الفرصة لممارسة الأساليب الاجتماعية بنجاح.

ولعلنا تتساءل الآن من نوع الميول التي تتكون لدى التلاميذ في ظل الدراسة التقليدية ومناهجها الجافة، إن جفاف المناهج وبعدها عن حياة التلاميذ يجعلهم

يضيقون بها ولا يقبلون عليها. وإن من ينظر إلى تلاميذ المدارس المعتادة وقد جلسوا الساعات الطويلة المملة فوق تلك المقاعد المصفوفة يستمعون إلى تلك الدروس النظرية ينقلهم الناقوس من واحد منها إلى الآخر، سوف يدرك ما يصيبهم منها من ملل وكآبة. والمدرسة إذ تفعل ذلك إنما تبذر بذور الكراهية بين التلاميذ وما يدرسونه كثيرا ما تمتد هذه الكراهية نحو المدرسين والحياة المدرسية كلها.

ولعلنا نستطيع على ضوء ذلك أن نفسر سبب القطيعة بين كثير من المدرسين وما درسوه في مدارسهم وقد يكون ضعف ميل بعض الناس نحو القراءة والاطلاع ناتجا عما بثته المدرسة في نفوسهم من كراهية لهذه النواحي.

ولا شك أن الخبرة التي تحول دون اكتساب غيرها والتي تعجز عن تنمية اهتمام صاحبها بكسب الخبرة الجديدة، تعد خبرة عقيمة لأنها تحول دون التقدم والنمو.

فمن واجب المدرسة أن تتمعن ما يترتب على ما تقدمه لتلاميذها من ميول لها آثار بعيدة المدى في حياتهم وأن تعمل على تكوين الصالح منها، ومن الممكن أن يتحقق ذلك إذا أحسن وضع المناهج الدراسية بحيث تصبح وثيقة الصلة بحياة الدارسين وبحاجاتهم، وبحيث يدركون أهميتها ويقبلون عليها. ومن الممكن تعديل الطرق المستخدمة في المدارس بحيث تصبح أكثر ملاءمة للتلاميذ فتتيح لهم قسطا أكبر من النشاط وتساعدهم على تحقيق أغراضهم والتعبير عن أنفسهم. كما ينبغي أن يصبح الجو المدرسي كله محببا إلى نفوس التلاميذ حتى يؤدى الى تكوين الميول المناسبة واكتساب العادات الصالحة.

الخبرة والاتجاهات

يمكن أن ننظر الى كل موقف من مواقف الخبرة على أنه استثاره من جانب البيئة وتأثر واستجابة من جانب الفرد. فهنالك دائماً سبب ونتيجة أو فعل ولا يمكن القول بأن الإنسان قد اكتسب خبرة في موقف ما إلا إذا أستطاع أن يربط أو يدرك العلاقة بين السبب والنتيجة، وإلا فإنه لا يكون قد استفاد من هذا الموقف فائدة تعينه

على تعديل سلوكه وإحداث مزيد من الملاءمة بينه وبين بيئته في مواقف الخبرة المشابهة التالية.

وقد تكون العلاقة بين السبب والنتيجة بحيث يسهل إدراكها كما يحدث عنما يضع الشخص إصبعه في النار فتحرقه، أو تحدث له ألماً، فيدرك العلاقة بين وضع الإصبع في النار و بين الشعور بالألم، وفى أحيان أخرى لا يسهل إدراك هذه العلاقة لأول وهلة، كما يحدث عند البحث عن سبب مرض من الأمراض، مما يترك الإنسان في حيرة فمن أمره ، يحاول أن يجد تفسيراً لما يلاحظه وبذلك يلجأ الإنسان إلى التفكير في حل مشكلته. وتختلف أساليب التفكير، فمن الناس من يتخبط في تفكيره خبط عشواء وقد يتقبل أول خاطر يمر بباله، ولو لم يقم على صحته اي دليل. ومنه من يلتجئ إلى والد أو مدرس أو رئيس يحاول أن يجد عنده حلا لمشكلته، فينزل من نفسه منزل اليقين وقد لا يخطر له أن يراجعه أو يتشكك في صحته وبذلك يصبح الشخص طفيلياً في تفكيره. وقد تتضارب الآراء التي يحصل عليها فلا يكون لديه وسيلة يتمرن بها بين الخطأ والصواب.

والتفكير السليم هو الذي يتلمس صاحبه الدليل على صحته، وهو الذي يوصل الإنسان إلى أحكام تصدقها المشاهدة ويؤيدها الواقع. وهذا النوع من التفكير هو الذي يسير بالتفكير العلمي. فقد اقترن بدراسة العلوم فوصلت به إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار.

ولا بد في التفكير العلمي من تحديد المشكلة أولا، ثم افتراض الفروض لحلها. والفرض الناجح هو الذى تؤيده المشاهدات وتشير إلى صدقه التجارب بل ويعين الإنسان على التنبؤ والتوقع.

ويكتسب الإنسان اتجاهات عقلية معينة نتيجة للأسلوب الذي يتبعه في التفكير فالشخص الذي تعود أن يفكر بعقل غيره يصبح سلبياً في تفكيره يستقر عقله في أذنه وتضعف قدرته على حل المشكلات وعلى الابتكار.

فاذا كانت التربية تستهدف تحقيق أقصى ما يمكن من أسباب النمو للفرد حتى يصبح عضواً مفيداً في مجتمع ديمقراطي رشيد. فلابد من تدريب التلاميذ على

أسلوب التفكير العلمي حتى يكتسبوا الاتجاهات العقلية السليمة فيصبح الشخص ذا حساسية لما يصادفه من مشكلات يستطيع تحديدها وافتراض الفروض المناسبة واختبارها.

ويصبح متفتح العقل لا ينظر إلى الحقائق على أنها جامدة. ويصير مستعداً لتعديل وجهة نظره إذا استجد لديه من الأدلة ما يدعو الى ذلك. ومن الاتجاهات العقلية اللازمة لسلامة التفكير والتروي في إصدار الأحكام والتحرر من سلطان الأهواء والنظر إلى الأمور من سائر جوانبها.

والمدرسة التي تجعل منتهى مقاصدها شرح الدروس وتحفيظها وتسميعها وتعتمد في أسلوبها على التقليد تقعد عن تحقيق هذه الغايات، ولا يتسع وقتها لتدريب التلاميذ على طريقة التفكير السليم، وإن في شيوع طريقة التدريس التي تعتمد على حفظ الملخصات السبوريه والموجزات المطبوعة لقضاء على تلك الأهداف التربوية التي تتصل بالتفكير العلمي. فطريقة التقليد تحول التلاميذ إلى بغبغاءات يرددون مالا يفقهون، وتجعل حصيلتهم من المدرسة مجموعة من الألفاظ الخاوية، فهم لا يحسنون التفكير في الأمور، ويستجيبون لأول داع، ويقعون فريسة الأساليب الدعاية الكاذبة.

وتستطيع المدرسة أن تعمل على تزويد التلاميذ بالاتجاهات العقلية السليمة إذا أحسن وضع المناهج الدراسية بحيث تصبح مشكلاتها حية وذات صلة متينة بحية التلاميذ. وإذا حاول المدرس أن يتبع الأسلوب العلمي في عرض ما يقدمه للتلاميذ، وأن يدربهم على استخدام هذا الأسلوب في دراستهم فيتيح لهم الفرص لإدراك أهمية المشكلات التي يدرسونها وتحديدها لصورة مناسبة، ويهيئ لهم من الخبرة العملية المباشرة ما يعينهم على الملاحظة وافتراض الفروض واختبارها والوصول إلى أحكام تقوم على الواقع وتستمد قوتها من مدى اتفاقها معه وقدرتها على تفسيره. ومن الواجب ألا يكون استخدام الأسلوب العلمي مقصوراً على دراسة العلوم، فمن الممكن بل ومن الواجب تطبيقه في دراسة المواد الاجتماعية وغيرها من الدراسات كذلك. على أن يكون استخدام هذا الأسلوب في الحياة المدرسية، وسيله

لكسب الاتجاهات العقلية المناسبة حتى تصبح جزءاً من النسيج العقلي للتلاميذ وحتى تدخل في بناء شخصياتهم، وحتى يصبح تفكيرهم في سائر ما يواجههم من مشكلات الحياة سائراً على المنهج العلمي القويم.

الخبرة والثقة بالنفس:

إن الإنسان إذ ينشط لكي يتفاعل مع بيئته فإنما يفعل ذلك تحت ضغط حاجاته إليها والحاحها عليه، وهو أثناء ذلك يدرك غايات معينة ويحدد أغراضاً يتجه نحوها ويسعى إلى تحقيقها، وقد ينجح أو يفشل في تحقيق هذه الغايات.

وتتكون فكرة الإنسان عن نفسه نتيجة لما يصيبه من نجاح أو فشل في مواقف حياته المتصلة المتتابعة. فمن حالفه النجاح اكتسب ثقة في نفسه، ومن كان الفشل نصيبه تزعزعت ثقته في نفسه.

والثقة بالنفس تضفى عليه شعوراً بالسعادة و تؤدى إلى الشجاعة والإقدام، وتمهد الدليل للتفكير السليم والابتكار، وينبغي أن تكون ثقة الإنسان في نفسه قائمة على نظرته للأمور نظرة واقعية شاملة، وعلى الاتزان وعدم المبالغة وتقدير الأمور على حقيقتها، والا فقد تصبح غرورا يتطلب الشخص بمقتضاه ما ليس من حقه ويتعالى به على الناس وينتقص به من أقدارهم وجهودهم، كما يحدث في حالة الطفل المدلل، والجاهل المغرور، ويمثل ذلك فقد يكون فقدان الثقة بالنفس غير مستند على أساس سليم، وقد يؤدى الى اليأس أو القنوط ويبعد صاحبه عن مجالات الابتكار و يؤدى به الى الانزواء والانطواء والى الشعور بالنقص وما قد يترتب عليه من الآثار.

والمدرسة التي تفرض على التلاميذ منهجا موحداً يدرس بطريقة موحدة، إنما تغفل ما بينهم من فروق فردية عديدة في القدرات والاستعدادات والخبرة، فتفسح المجال للفشل وفقدان الثقة بالنفس.

وإذا جعلت المدرسة منهجها نظريا ضيقا فإنها تقلل من ميادين النجاح وتجعله مقصوراً على أولئك الذين يتوفر لديهم الاستعداد لهذا النوع من الدراسات، وتحكم على غيرهم بالفشل.

وعلى ذلك فإنه ينبغي أن تنوع المدارس في مناهجها حتى يجد فيها كل تلميذ ما يناسبه وحتى تهيء له بذلك الفرص لتحقيق أقصى إمكانياته، وبذلك تعدد جهات النجاح، وتقل فرص الفشل، وتصبح المدرسة متلائمة مع استعدادات التلاميذ وحاجاتهم بدلا من أن تكون مفروضة عليهم، ومن مطالبتهم بأن يتلاءموا معها.

وهكذا نرى أن مواقف الخبرة الجديدة التي يمر بها التلاميذ في حياتهم المدرسية لا تقتصر آثارها على تلك الحقائق التي يستظهرونها والمهارات التي يتقنونها، فالتلاميذ يكتسبون بجانب كل ذلك و بالإضافة إليه كثيراً من العواطف والميول والاتجاهات والعادات والأساليب التي تناولنا جانبا منها.

ويطلق على تلك الآثار النفسية بأنواعها المتعددة اسم "الخبرة المصاحبة".

ويرجع اهتمام التربية بالخبرة المصاحبة إلى أهميتها البالغة في حياة الإنسان فهي قوة دامغة في حياته، توجه سلوكه وتكسب شخصيته طابعها الخاص.

ولقد أهملت المدارس القديمة في غمرة اهتمامها بالتحصيل والتحفيظ والتسميع هذا النوع من الخبرة على أهميته.

ومما ساعد على ذلك أن آثار هذه الخبرة غير منظورة، لا يدركها إلا من أدرك أهداف التربية على حقيقتها، كما أن تقويم تقدم التلاميذ ونموهم في الاتجاهات المتعددة المرغوبة ليس من الأمور اليسيرة، فهو يحتاج إلى إعداد خاص من جانب المدرس ومران له على إتقان أساليبه.

ويتطلب العناية بأمر الخبرة المصاحبة تنظيما جديداً للحياة المدرسية في مناهجها وأساليبها بحيث تصبح المدرسة بيئة مناسبة لتحقيق الاتجاهات المطلوبة. ولابد أن يدرك المدرس في أتم جلاء أن يسهر على تزويد التلاميذ به من حقائق علمية ومهارات لا يقاس في أهميته التربوية بما يزودهم به من ميول واتجاهات وعادات، تتحد على ضوء طريقة تدريسه ونوع معاملته لهم، بل وما قد يتركه في نفوسهم من آثار يحسن ذوقه ونظرته للأمور وأسلوب تفكيره، ومدى تمسكه بالفضائل الاجتماعية. فمن الواجب أن يكون المدرس قدوة حسنة للتلاميذ في جميع هذه الأمور.

وإذا كانت مصر تستهدف في نهضتها الراهنة إعداد المواطنين الصالحين الذين يعتمد عليهم في بناء مجتمع ناهض يضطلع كل فرد فيه بتبعاته، ويسهم في تقدمه بتفكيره السليم فلابد من تخطيط الحياة المدرسية تخطيطا جديداً يعلو فيه قدر الخبرة المصاحبة وتعد الظروف فيه عن قصد لتحقيق أهدافها.

والله الموفق إلى ما فيه الخير والإرشاد.